

الواجهات التحليلية والاستنتاجية أن الوحي القرآني ليس نقيضاً - بديلاً - للوحي العقلاني، فهذا ما يستفاد من الآية الكريمة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].. ولو فعل ذلك بدءاً لكفى المؤمنين، لكن كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54].

لماذا خصت النبوة بأفراد دون الناس؟

وربَّ معترض على حصر النبوة بأفراد معينين، مطالب بحقه أو حق الناس فيها وفي أخذ المنهاج منه سبحانه لتطمئن القلوب وتستقر الأنفس، ويزداد يقين الإنسان بربه، فيقبل على الالتزام بأمره دون شك أو تردد، ولكن هذا الاعتراض ليس إلا وليد رؤية قاصرة، أو هوى، أو جهل، أو ثمرة لحسد يعتمل في القلوب على ما آتاه من فضل لبعض عباده، وليس بينه وبين الحق من نسب ولا سبب وذلك للأسباب التالية:

أ - إطلاق لحرية الاختيار الديني:

إنَّ اختصاص بعضهم لأداء أمانة النبوة لكونهم أهلاً للوفاء، ودون الأكثرية من هذا العمل لهو حجة على تقدير الله سبحانه لحرية الاختيار التي أعطاها للإنسان إذ قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3]، لأن الوحي لكل إنسان يمنع اختياره وإراداته ويحد من حريته في الطريقة التي يريدتها، واتباع المنهاج الذي يؤمن بأفضليته ويحبه ويرضاه، لأن وحي الله للإنسان، ما هو إلا علمه بجزء من الغيب بإحدى حواسه أو بعضها يهتز منه كيانه، فيتصرف وفق المنهاج الذي يملي عليه من عالم الغيب، ولا يبقى له أي

مجال للخيرة في أمر التصديق به، ولا ينفسح له ميدان الإيمان بفكر آخر يرتأيه ومنهاج يختاره لحركته الحياتية، ويؤمن الناس كلهم أجمعون طوعاً أو كرهاً لظهور الحق وانكشافه أمامهم وثبوتهم لديهم ثبوتاً كالمعادلات الرياضية والخرائط الجغرافية مثلاً، ومن ثم تفقد الحاجة إلى الإيمان باليوم الآخر وتزول الحاجة إلى محاسبة الخلق على ما قدموا، حيث لا ذنب يسجل مع شهود الناس للغيب والرؤية الواقعية بعين البصيرة لجزاء المخالفين، فلا عقاب!

ثم إن الإنسان لا يستحق ثواباً وأجرأً وشكراً على قيامه بعمل سيق إليه سوقاً أو دفع إليه دفعاً من غير أن يبذل جهداً في اختياره والانطلاق إليه والإيمان بصدقه وتحمل تبعته، والله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179].

ب - مراعاة للطاقة الإنسانية العادية

إن حصر النبوة في رجال معدودين لهو رحمة بالإنسان الذي خلق ضعيفاً يتعامل مع الواقع المادي، وينوء بحمل شدائد الحياة اليومية العادية وسلبياتها (كالتعب والمرض والمعاناة الجسدية والنفسية)، ويعجز عن التعامل المباشر مع كثير من القوى (كالنار والكهرباء والتفجيرات الذرية)، فتلقي الوحي ليس أمراً هيناً، بل أُعِدَّ له النبي ﷺ... أما تأهيل الجميع لهذه المهمة فهو يجعل العملية الاختيارية للخلق معدومة كما أسلفنا و: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].

ج - برهان على الحكمة

إن اختيار أفراد معينين لأداء بلاغ الدين إلى خلقه والقيام بأمر النبوة، هو

مقتضى الحكمة، ذلك لأننا نلاحظ في دار الدنيا أن التقدم لإشغال أي منصب من مناصب الدولة يتطلب توفر شروط خاصة في المتقدمين من الكفاءة والقابلية والعلم والخلق الحسن، وكلما علا المنصب وارتفعت درجته وترقت الوظيفة كلما ازدادت شروط القبول وتركزت وتنوعت، فيا ترى هل يتقدم أحد ممن لا تتوافر فيهم الشروط للتعين في منصب لا يستأهله ومقام لا يستحقه؟ أم أن كل إنسان يوجه عزمه ويحصر أمله في نيل الدرجة التي ترشحها له كفاءاته ومعلوماته؟

أيستشرف الأميون مثلاً أن يصبحوا كتاباً في الدوائر؟ يأمل الجنود العاديون في مواهبهم العسكرية وخبراتهم العلمية أن يغدوا قادة للجيش العصرية المدربة مع فقدانهم لمؤهلاتهم وسماتهم وملكاتهم الفطرية؟ هل بوسع نصف المتعلم أن يتحول أستاذاً في الجامعة مع ضيق أفقه الفكري، وقلة استيعابه للعلم، وضعف حافظته وذاكرته؟ الجواب: كلا، إن تلك الأمنيات خيالات خداعة، فكل إنسان ميسر لما خلق له من أعمال، والاستعدادات المعطاة للناس منوعة الأبعاد متوازنة موزعة على أفراد المجموعة البشرية في تكافؤ، بحيث لا يحرم أي إنسان من موهبة فطرية تؤهله لأداء دور معين في حركة الحياة، ومن ثم تسير القافلة الإنسانية سيراً حسناً نحو تحقيق الحاجات الحضارية والمدنية بكافة أبعادها، وضمان تقدم الإنسان. . . ولما كانت النبوة عملاً يقتضي مواهب فطرية واستعدادات موروثية وسمات ومميزات نفسية وخلقية وإعداداً سابقاً، ولا تنهياً لكل فرد بحكم تكوينه، إذاً فلا بد من اختيار مسبق واختصاص بعض العباد بالملكات المطلوبة، ولا بد من إعداد رفيع لأولئك العباد لأداء وظيفة النبوة، وليكونوا على المستوى الذي يؤهلهم لما يوكل إليهم من مسؤولياتها وأعبائها. ومصداق هذا في آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَصْطَفَيْنَا لِنَفْسِكَ﴾ [طه: 41] وقال أيضاً: ﴿وَلِنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: 39]، وقال أيضاً: ﴿وَأَنَا آخَرْتُكَ﴾

[طه: 13] ﴿وَلَقَدْ آخَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: 32]، ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ
مَادَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

د - توزيع للاختصاصات:

إن تخصيص معدودين للقيام بأمر النبوة لهو من حكمة ما يسمى بلسان العصر بتوزيع الاختصاصات، وهذا ما نشهده في دنيانا القريبة حيث تنص الدول الحديثة وقوانينها على إقامة سفراء في البلاد التي ترتبط معها بعلاقات صداقة أو جوار، ويتولى هؤلاء السفراء مهمة التكلم باسم بلادهم، وبيان مواقفها، وآرائها، وملاحظاتها، واعتراضاتها، وتشكراتها، وإنذاراتها، إلى حكومات البلدان التي يقيمون فيها، كما يقومون بالرد على الأسئلة والاستفسارات التي ترد إلى سفاراتهم من المسؤولين، وأصحاب العلائق، وذوي الارتباط، في الأمور التي تخصهم... وإذا ما أراد فرد أن يعلم شيئاً عن بلد ما لحاجته إلى ذلك، فإنه بدلاً من أن يشد رحاله إلى ذلك البلد متكلفاً متاعب ونفقات السفر، فإنه يتوجه رأساً إلى سفير تلك البلاد في عاصمة بلاده ليعرف ما يريد ويطلع على ما يصبو إليه بسهولة ويسر،.. وهكذا الأمر في النبوة على مدار التاريخ؛ إذ كلف الله تعالى الأنبياء ﷺ للقيام بأمر النبوة لهدي عباده وإمدادهم بالعلم الذي يحتاجون إليه في المعاش والمعاد، مع الفارق في الأمرين.



لماذا ختمت النبوة؟

لقد أثبتت المصادر الموثوقة، والكتب المنزلة وخصوصاً القرآن الكريم الذي شهد الآخر بصدقه وحفظه من التحريف والتغيير، حدوث النبوة وبعثة الأنبياء ﷺ ودعوتهم الناس إلى الإيمان بالله رباً وإلهاً، والعمل بما أنزله. . ووجود الأنبياء ﷺ وتتابعهم وتواترهم في سائر الأمم والعصور، رغم المسافة الشاسعة والفاصلة الزمانية والمكانية بينهم ورغم اختلاف ألسنتهم، مع استقبال الصالحين لهم بالحب والإيمان بمناهجهم والتوقير والتصديق لهم، ونشر رسالاتهم واستماتتهم دون التفريط بها أو العدوان عليها أو الحد من ظهورها، ووفائهم لتلك الرسالات حتى بعد وفاة المرسلين، برهان على إخلاص الأنبياء لتلك الرسالات وصدقهم في دعوى النبوة، والذين ينكرون النبوة اليوم لا يملكون برهاناً واحداً يثبت ويؤيد فكرهم سوى أن يقولوا مختالين: لو كانت النبوة حقاً فلماذا لا يبعث نبي في هذا العصر؟. أليس لأن دعوة النبوة لا يمكن تمريرها على العقل بعد تفتحه وتوسع آفاقه ورحابة مجالات علمه في العصر الحديث؟! لكن قولهم مردود وحجتهم داحضة وذلك لما يلي:

أ - لقد ختمت النبوة ببعثة نبينا محمد ﷺ، وبرهان ذلك: أن أحداً من الأنبياء المتبوعين لم يدع أنه خاتم الأنبياء ﷺ سوى نبينا ﷺ الذي جاء على لسانه قوله: «لا نبي بعدي»⁽¹⁾. كما لم يرد في كتاب منزل ما يذكر ذلك الختم عدا القرآن الكريم الذي جاء فيه تسمية الرسول محمد ﷺ بأنه: ﴿رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّنَ﴾ [الأحزاب: 40].

(1) رواه البخاري ومسلم. التجريد الصريح للزبيدي ج 2، ص: 332.

